

كتاب الأمانة  
في الأمانة



لو لم تكن هناك آخرة لوجب أن توجد .. فدنيانا هذه استولى عليها الغشاشون والمرتشون والكذابون والمنافقون والقتلة وعلا فيها الأدياء وارتفع الأخصاء وحكم السفاحون وفاز الدجالون وتقلد المداهنون النياشين والأوسمة ، أما الطيبون فلزموا الخنادق والكهوف ولاذوا بالجدران يدافعون عن لقماتهم الصعبة واعتزلوا شوارع النجاح القذرة وتجنبوا أحوال الشهرة ومزالق الجاه .

والقمة التي تتشدد الآن بالعدل وبحقوق الانسان هي نفسها التي دامت على العدل وعلى حقوق الانسان ، وهي نفسها التي وقعت على أوراق إعدام الشعوب وعلى مذابح الضحايا وعلى محارق المغلوبين بالجملة .  
قد يقول قائل : ولماذا يستوجب هذا الظلم افتراض آخرة ؟ فأقول بيقين : لأن العطش الى الماء يدل على وجود الماء وعطشنا الى العدالة أشد .. وهو الدليل القاطع من داخلنا على وجود العادل .  
إن من زرع فينا العطش الى الخير والحق والعدل قد زرع المؤشر الذي يدل عليه وهو برهان قطعي لأنه برهان من قلب وجودنا وليس ثرثرة منطلق ولا جدلا فلسفيا فارغا .

إن نور الحق من داخلنا .. يقول : هناك يوم لن يفلت فيه ظالم .  
إن الذي أقام موازين هذا الكون المحكم الذي لا يستطيع أن يفلت فيه الكترون خارجا عن مداره دون أن يحصل على شحنة تساوى حركته .. وهو جسيم أصغر ألف مليون مرة من الهبأة .. يقول لنا ربنا بهذا المثال البليغ : إنه لن يفلت ظالم واحد من موازينه .. ولو قال ظاهر الدنيا غير ذلك .. فلا بد من آخرة تصحح جميع الموازين .

إن قول الله في كتابه .. « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » تعنى ان أغلبية هذا العالم هم من الكفرة وان كانت بطاقتهم الشخصية تقول غير ذلك .. وان أغليبيتهم إلى النار .

ألم يقل عن الساعة إنها خافضة رافعة .. أى انها سترفع الأذلين والمبتلين من أهل الدنيا الى أعلى المنازل وستخفض بالمتكبرين من أهل الجاه الى الهاوية .. ولهذا سماها بيوم الفزع الأكبر .

ولكن الأهواء والشهوات التى تسيطر على الكل تعطل التفكير وتصنع مناخا عاما من الغفلة واقتناعا وقتيا بأن هذه الدنيا هى كل شىء . ويظل الكل سادرا فى الغفلة حتى تأتى لحظة الموت ولا تعود هناك رجعة .

وما أقرب ذلك الموت منا جميعا .

وما أشبه الزمن بوهم .. الماضى فيه عدم والمستقبل خيال والحاضر مجرد خيط مفترض بين الوهمين .. وحركتنا عبر هذا الخيط هى أسرع مما نتصور فما تلبث سنوات العمر ان تصبح ماضيا معدوما وما تبقى لنا من أيام العمر مستقبلا موهوما .. ثم يفاجئنا الموت ولا يبقى شىء يقال .

هلا دعا كل منكم نفسه لوقفه تأمل قبل أن يرفع يده ليرتكب جريمة أو يقسو على انسان أو يختلس أو يسرق أو يأكل مال يتيم أو يظلم أرملة أو يشهد زورا أو يقتل بريئا .

هلا نظر كل منكم إلى أبعد من أنفه واستشرف إلى أبعد من مواقع قدميه وتخطى مصلحته وتجاوز لحظته ؟

وأتوجه بهذا للكبار قبل الصغار .

وأرجو أن يترجم عنى هذا الرجاء بكل اللغات إلى الأحاد الذين يحكمون العالم ويتربعون على مصائر الملايين ويتصرف كل منهم وكأنه الرافع الخافض والمعز المذل والمحى المميت .. لعله يتوقف هو الآخر لحظة ويفكر هنيهة قبل أن تُسحب منه صلاحيات التصريف ويصبح أثرا بعد عين وهيكلًا لشيء تحت التراب .

ولا يظن أحدكم أن حظه من القوة والجاه والشهرة والمال والعلم والفن

هو مقياس عظمته .. فالله سبحانه حينما امتدح نبيه قال له .. « وإتاك لعلى خلق عظيم » .. لم يقل له وإتاك لعلى علم عظيم أو فن عظيم أو ثراء عظيم أو جاه عظيم أو شهرة عظيمة .. وإنما قرن العظمة بالخلق على وجه التحديد وبالخلق وحده .

ونعلم الآن مبلغ الدقة في هذا التوصيف فنحن نرى الآن علماء لا نشك في درجاتهم العلمية ونعلم مع ذلك انهم لصوص ومرتشون وانتهازيون ومنافقون وعباد مناصب .

وأكبر فناني عصرنا أجرا وأوسعهم شهرة أمثال مادونا ومايكل جاكسون هم أفسدهم سيرة وأحطهم أخلاقا .. وكذلك كان أكثر الفنانين في كل العصور أمثلة بالغة للفسوق والانحلال .

والثراء دائما كان لصاحبه مفسدة وكانت الملايين لأهلها مضيعة .. وكان الجاه غرورا والقوة تسلطا والنفوذ غطرسة .

فلا يصلح أى شىء من هذا مؤثرا للعظمة .. ولا عاصما لصاحبه من عذاب الآخرة .

وانما المؤثر الوحيد للعظمة هو حسن الخلق وهو العاصم الوحيد يوم لا ينفع مال ولا بنون .. ويوم يقف الانسان عاريا إلا من عمله .

وأهل الخلق هم أهل التقوى وهم أهل خشية الله وهم أهل الدين .

وهنرى برجسون لم ير للأخلاق أصلا ومنبعا سوى الدين فى كتابه :  
« الدين منبع الأخلاق » .

والمتصوفون جعلوا من الأخلاق محور مجاهداتهم ورياضاتهم ورأوا فيها صراطهم الوحيد الموصل الى الله بالاضافة الى العبادة والتوحيد واتقان العمل .. واتخذوا للنفس المذنبه سلما ترتقى عليه يبدأ بالتخلية ( أى التخلية من الذنوب وهجر المخالفات ) ثم التحلية ( بالذكر والتسبيح والتزام الطاعات واتقان العبادات وعمل الصالحات ) .

ولهم فى ذلك أحوال ومقامات ومنازل ومراق تدور كلها حول التخلق بمكارم الأخلاق .

ويقولون إن التخلق هو السبيل إلى التحقق أى التحقق بالمعرفة الإلهية على وجه التحقيق .. وتجلي الكمالات الأسمائية على الذات العارفة فى ذروة قاب قوسين أو أدنى .. وذلك عندهم منتهى القرب وغاية المنى .

والأديان اتفقت جميعها على ضرورة الأخلاق .. وألواح موسى كانت معظمها وصايا خلقية .. والوصايا العشر فى الانجيل وصايا خلقية .. والقرآن هو المنهج الخلقى المفصل المحكم المهيمن عليها جميعها .

وبدون أخلاق لا اسلام ولو اكتملت الشعائر واتسقت المناظر والمظاهر .. فالتقوى هى جوهر الدين بلا خلاف .

وفى عصر الظلم والعدوان والبلطجة الذى نعيش فيه والحرب التى يقودها الغرب لإبادة المسلمين فى حملات الحقد والكراهية التى تجرى أمامنا لا أرى إلا كراهية تتأجج فى قلوب هؤلاء الناس ولا أرى إلا علوا واستكبارا وعنصرية وكفرا بواحا .

ولا أرى مسيحية على الاطلاق بل أرى صليبية يهودية لا تؤمن بشىء سوى السيادة لنفسها بأى ثمن .

وقد تغلغت هذه الصليبية اليهودية الى جميع مقاعد صنع القرار وراحت تتآمر وتفسد وتتؤلب الفئات والطوائف والأجناس والأديان بعضها على بعض .. وتستخدم الآلة العسكرية الأمريكية فى إثارة الحروب .

وسوف يحيلون الأرض إلى جهنم ولكنهم سوف يكونون وقودها فى النهاية ..

ولن ينتصروا أبدا ولن يصلوا إلى غايتهم .

ويقول ربنا عنهم :

« إن فى صدورهم الأكبر ما هم بباليغيه »

أى أنهم لم يبلغوا تلك السيادة التى يخططون لها ولن يحققوا ذلك الكبر الذى يملأ صدورهم .

ولكنهم بسبيلهم إلى تلك الغاية سوف يملؤون الأرض عذابا ويشعلونها فتنا .

ونرى الآن مشاهد مستفزة من تلك الفتن وقد اتخذ الصهاينة من النسر الأمريكي مركبا ومن الحلفاء الأوربيين أعوانا .. وسوف يجلبون الخراب على أمريكا ويأتون على بنيانها من القواعد .  
وسوف نرى ذلك بأعيننا في السنوات القليلة القادمة وقبل أن ينتهي القرن .

ولكننا لن نرى ذلك من مقصورات المسرح بل سنكون نحن المسرح نفسه .. وسنكون التاريخ .. وسنكون القدر والمقدور .  
وأكاد أسمع كلام الله وكأنما يوجهه إلى الفلسطينيين المجاهدين اليوم « فلا تهنوا وتدعو إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » .  
ولا شك أن مصيبة العرب كلهم هي ذلك الوهن الذي أصابهم والذي ذكره الله في الآية وهو يقول جل من قائل :  
« فلا تهنوا و تدعو إلى السلم وأنتم الأعلون » .

( ٣٥ - محمد )

أى لا تستسلموا لذلك الوهن ولا تدعنوا للباطل وأنتم أهل الحق وأنتم الأعلون وهم الأسفلون وإن كانوا أكثر قوة وأكثر عدة ولكن الله معكم ولن يضيع ثواب من يجاهد منكم ولن يضيع عمله .  
ومرة أخرى أقول لإخواننا الفلسطينيين : لا توقعوا على مذلة ولا تبصموا على غيب .. فهم لا يريدون لكم سلاما ولكنهم يريدون استسلاما .  
وأنتم جميعا ظهوركم الآن إلى الحائط .  
وأى تنازل آخر سوف يعنى خروجكم من دائرة الوجود بالكلية .. وانظروا ماذا تصنع الأمم المتحدة بإخوانكم في البوسنة .  
ان آخر ما قاله لورد أوين وسيط السلام إلى مسلمي البوسنة :  
ليس أمامكم الا قبول الأمر الواقع .. وإذا لم توافقوا فإننا سوف نقطع عنكم المعونات الغذائية وسوف نسحب قوات الأمم المتحدة .  
وهذا كل ما تقدمه الأمم المتحدة ورسل السلام الى الحفنة الباقية من المسلمين المحاصرين بين مطرقة الصرب ونار الكروات .

ولورد أويين وسيط السلام اليهودى لا يفكر فى أن يضغط على الصرب  
أو على الكروات .. بل كل ما يفعله من نجدة هو أن يضغط على رقاب  
المسلمين ويهددهم بالموت جوعاً هم وأطفالهم إذا لم يقبلوا التسليم بالأمر  
الواقع ..

وهذا هو سلامهم .. إنه الذل الأكثر مرارة من الموت .. فلماذا الوهن ..  
ولماذا هذا التخاذل !؟

أحبا فى دنيا لاتساوى شيئاً ..

أحبا فى لقيمات مغموسة فى الذل ؟

لقد سألوا النبى عليه الصلاة والسلام عن الوهن الذى جاء فى الآية  
الكريمة .. وقالوا له : وما الوهن يا رسول الله .. فقال الصادق الأمين : هو «  
حب الدنيا وكراهة الموت» .

وهذا حال أمة المسلمين كلها اليوم .. فى كلمتين .. هو حب الدنيا وكراهة  
الموت ..

ولن يتبدل حال تلك الأمة الا حينما يظهر فيهم أولو العزم .. والعصبة  
أولو القوة .. التى تبيع دنياها بأخرتها .. ولا ترى فى تلك الدنيا شيئاً  
يساوى المذلة من أجلها .

وهانحن أولاء بدأنا بالكلام عن الآخرة وانتهينا إلى الكلام فى الدنيا ..  
وهل يختلف الاثنان ؟

أليس وجهين لحقيقة واحدة .. هى نفوس تبلى هنا وتثاب هناك .. وهى  
ما بين زمن ضائع اسمه الدنيا ، وخلود أبدي اسمه الآخرة .